فطيمة

تربط عقدة منديل رأسها المبرقش بعزيمة وإصرار، ناظرة للمرآة في تحدّ.

فطيمة، اسمها الذي طالما شعرت نحوه بسخرية لا تقلّ عن مفارقة كونه اسمًا شائعًا في أوساط، لا تمتّ لها بأيّ صلة إلّا خدمتها، تتّجه صوب أمّها العجوز حاملة ملابس نظيفة استعدادًا للحمّام اليوميّ، الذي تعطيها إيّاه قبل أن تحضر لها إفطارًا «ملوكيًّا» مكوّنًا من بيضةٍ وكوب لبن وربع رغيف من الجبن الأبيض تطعمها إيّاه، وتقبّل يديها، ثمّ تأخذ أبناءها، الذين أيقظتهم معها؛ استعدادًا للذهاب إلى مدرستهم، وترحل مغلقةً الباب المتهالك ذا الطبلة الخربة والترباس الصدئ وراءها.

كم أخبرت حسين زوجها بأن يصلحه، ولكنّه لا يفعل متعلّلًا بضيق ذات اليد صارخًا في وجهها:

«إن شاء الله عنه ما اتصلح، مفيش فلوس، أجيب لكم منين وبعدين هي المخروبة دي فيها إيه يتخاف عليه».

تنظر له بأسى ولا تردّ.

ليس هذا حسين الذي تزوّجته، وهي مازالت ابنة الثمانية عشر عامًا، الشاب البريء الطيب الذي لا تفارق عيناه الأرض.. ماذا حدث له؟! تغيّر كثيرًا منذ أهلكته الأعمال الثلاثة، التي يعمل فيها، حتّى يكفي احتياجات بيته، فهو نادل صباحًا وعامل (جراج) عصرًا ويوصل طلبات على دراجة نارية مساءً، وعلى الرغم من ذلك لا يستطيع أن يؤمّن طلبات البيت، نتيجة غلاء الأسعار؛ التي تزداد كلّ يوم.

أكل شبابه الإرهاق والتعب، وامتصّت رحيق عمره الهموم والمسئوليات التي أعيت متنه وكلّته.. وهنا، لم تستطع فطيمة الوقوف ساكنة، فقرّرت أن تعمل في خدمة البيوت؛ لاسيّما أصحاب المنازل الخاصة الكبيرة، التي يثير اسمها تعجبهم وسخريتهم أحيانًا، تنظّف المنزل، تحضر الطعام، وتعيد ربط منديلها، الذي تهدل وتعقده بعزم المحاربين المُقدميْن على المعارك، لتمسك بالممسحة والدلو، وتقوم بتنظيف أرضيّات المنزل محنية الرأس مكسورة الظهر، تتحاشى نظرات «البهوات» لجسدها الهزيل، الذي التصقت عليه ملابسها.. جسدها الذي ينهشونه رغبة في تذوقه؛ فبالتأكيد له طعم آخر يخالف مذاق الأجساد الرياضيّة الممشوقة

ذات الوجوه البلاستيكيّة المزيّنة بالعجرفة والتعالي «للهوانم» اللواتي لا يرضين غرورهم الذكوري.. انحناءة جسدها والنظرة المنكسرة هي ما تشعل فيهم كبرياء الرجولة، فتتحاشاهم، وتنهي عملها مسرعة؛ لتلحق بميعاد خروج الأولاد من المدرسة.

تعليم الأولاد كان هدفها وأمنيتها، التي تطمح إلى تحقيقها، وهي حريصة عليها حرصها على الحياة نفسها؛ مهما تكبّدت من معاناة ومشقة، تعود للمنزل تركل الباب بخفة، فينفتح لتجد أمها، وهي تنظر إليها في أسى، فتداعبها قائلة:

«وحشتني يا أمي.. بس أنت احلويتي قوي عن ما سبتك لا ده أنا حا خبّيكي من العرسان».

فتضحك الأم، وتذهب فطيمة؛ لتحضر الغداء، وتقوم بأعمال المنزل، وتذاكر للأبناء دروسهم على قدر ما تعلّمته بشهادتها المتوسطة، ليأتي حسين في المساء، تحضّر العشاء، ويجلسون جميعًا في صمت؛ ليقوموا إلى النوم استعدادًا ليوم آخر من الشقاء.

يوما ما، استيقظت فطيمة كالعادة، ونظرت للمرآة عاقدة منديلها بنفس القوة؛ لتبدأ يوما لا يختلف عن غيره من الأيام الأخرى، لتعود هي والأولاد لتجد الباب

مهشّمًا تمامًا، تهرول إلى الداخل باحثة عن أمّها وهي تنادي عليها:

«يا مّه ... يا مّه.... أنت فين؟! إيه اللي حصل؟!»

لتجد نفسها تقف أمام مشهد بشع؛ لجثة الأم المذبوحة والدماء تلطّخ كلّ ما حولها، تجلس فطيمة القرفصاء، وتحتضن أمها، وتبكي، وتصرخ، ثم تصمت وتنظر لها وتقول:

«حتوحشيني يامّه.. بس تعرفي أنت احلويتي قوي بس يا خسارة معرفتش أخبيكي يا مّه لا أنا ولا حسين قدرنا نصلح الباب»

يسقط منديل رأسها تغرقه الدماء تدريجيًّا؛ لتختفي برقشته الزاهية.